ترجمة

شيخ الإسلام ابن تيمية

« والله ما يبغض ابن تيمية
إلا جاهل أو صاحب هوى »

السبكي

المؤرخ الكبير

محمد كرد علي

رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق

الطبعة الاولى ١٣٨١ دمشق

الطبعة الثـانية ١٣٩١ دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدّمَة

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

أما بعد فهذه ترجمة موجزة لشيخ الإسلام أبي العباس أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى ، دبجتها يراعة المؤرخ الكبير الأستاذ المرحوم محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي في كتابه « كنوز الأجداد » ، وقد رأينا أن ننشر هذه الترجمة في رسالة منفردة ليعم نفعها في وقت نحن أحوج

ما نكون فيه إلى أمثال ابن تيمية في قوة عقيدته ، وسعة علمه ، واستقامة خلقه ، وبعده عن الاستغلال والهوى ، وجرأته في الحق ، وجهاده باللسان والقلم والسيف في سبيل الله عز وجل ، وفي وقت يحاول فيه بعض أدعياء العلم أن يفتروا عليه ، ويشوهوا حقيقته ، ويُقصُوا الناس عنه حتى لا ينكشف بالتعرف إليه تضليلُهم وانحرافهم وقصورهم .

ولقد كتب أحد المتطفلين على العلم من قريب رسالتين ليس فيهما إلا ما يناقض الكتاب والسنة ، ويدل على الجهل والغرض ، وهاجم في هاتين الرسالتين شيخ الإسلام ابن تيمية وهو لا يعرف — كما بدا من كلامه وأخطائه — في أي عصر وجد ، ولم يقرأ شيئاً من كتبه التي أربت على ثلاثمائة مجلد .

إن هذا المتطفل وأمثاله إما أن يكونوا جاهلين أو مغرضين لا يريدون أن يعرف الناس حقيقة دينهم فينقطع عليهم بذلك سبيل الاستغلال والارتزاق بمخادعة العوام ، والوجاهة بالخرافات ، ونشر هذه الترجمة التي كتبها عالم

مؤرخ بعيد في هـذه القضية من الغرض الشخصي يساعد الجاهلين على المعرفة وإبصار الحق فيعودون إلى منهج الصواب ويكشف المغرضين أرباب الهوى ويُلقمهم حجراً .

إننا لا نريد بما ننشر في هـذه الترجمة فضيحة شخص بذاته ، ولم نرد الخصام ، وإنما أردنا المعاونة على الوصول إلى الحق .. لذلك لم نذكر اسم هذا الجاهل أو المغرض الذي ناقض الإسلام باسم الإسلام ، وهدم في أسسه باسم الغيرة عليه .

وإننا لنكون سعداء جداً إذا كشفت هذه الرسالة للقارئين عن حقيقة الإمام ابن تيمية ، وردت المخطئين عن خطئهم ، ونبهت المغرضين على ظلمهـم ، وأعانت الجميـع على العودة إلى طريق السداد . ونسأل الله تعالى أن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه ، ويرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه ، وأن يجعل عملنا خالصاً ، وسعينا منتجاً .

هذا وقد يسر الله لنا طبـع « حياة شيخ الإسلام » لعلامة الشام أستاذنا الجليل الشيخ محمد بهجت البيطار مد الله بعمره وقد نفع الله بهذا الكتاب وهو تحت الطبـع للمرة الثانية .

وإننا لنحمد الله على أن جعل بسبب ما طبعنا من كتب شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم وغيرهما من علماء الإسلام الذين نصروا السنة الأثر الطيب النافع في رد أباطيل أهل الافتراء والدس . كتب الله لهذه الأمة الرجوع إلى العمل بالكتاب والسنة إنه سميع مجيب .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

م زهير الشاويش



ابن تيمية

ولد بحران سنة إحدى وستين وستمائة ، وقدم مع والده وأهله إلى دمشق ، وكانوا قد خرجوا من بلاد حران مهاجرين بسبب جور التتار وقدموا دمشق سنة سبع وستين .

فسمع الحديث من أئمته في دمشق ، وسمع مسند أحمد مرات ، ومعجم الطبراني الكبير ، والكتب الكبار والأجزاء .

وعني بالحديث ،وقرأ بنفسه الكثير ، ولازم السماع مدة سنين ، ونسخ وانتقى وكتب الطباق[1] والأثبات ،

(١) أي : السماعات .

وتعلم الخط والحساب في المكتب [1] ، واشتغل بالعلوم ، وحفظ القرآن ، وأقبل على الفقه ، وقرأ في العربية على ابن عبد القوي [2] ثم فهمها ، وأخذ يتأمل كتاب سيبويه حتى فهمه ، وبرع في النحو وأقبل على التفسير إقبالاً كلياً حتى حاز فيه قصب السبق ، وأحكم أصول الفقه ، كل هذا وهو ابن بضع عشرة سنة ، فابتهر الفضلاء من فرط ذكائه ، وسيلان ذهنه وقوة حافظته ، وسرعة إدراكه .

---

(١) في الأصل « الكتب » وهو تصحيف ، والتصويب من كتاب « الرد الوافر » لابن ناصر الدمشقي و « العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية » لابن عبد الهادي ، ورسالة « الكواكب الدرية » للشيخ مرعي بن يوسف الكرمي .

(٢) هو العلامة شمس الدين محمد بن عبد القوي ابن بدران المرداوي الحنبلي ٦٣٠ — ٦٩٩ .

ذلك ما قاله من ترجموا له في نشأته .

أما أخلاقه فقالوا : إنه نشأ في تصون[1] تام ، وعفاف وتأله ، واقتصاد في الملبس والمأكل ، ولم يزل على ذلك خلفاً صالحاً ، براً بوالديه تقياً ورعاً عابداً ناسكا صوّاماً قوّاماً ، ذاكراً الله تعالى في كل أمر ، وعلى كل حال ، رجّاعاً إلى الله تعالى في سائر الأحوال والقضايا، وقّافاً عند حدود الله تعالى وأوامره ونواهيه ، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، فارغاً من شهوات المأكل والملبس والجماع ، لا لذة له في غير نشر العلم وتدريسه ، عرض عليه منصب قضاء القضاة ومشيخة الشيوخ فلم يقبل » .

(١) في الأصل « تصوف » والصواب ما أثبتناه نقلاً عن « الرد الوافر » و « العقود الدرية » .

وقبل وظائف والده في التدريس وله إحـدى عشرون سنة . وكان والده من كبار الحنابلة وأئمتهم ، ودرّس هو بعده ، فاشتهر أمره وبعد صيته في العالم ، وما أتى له ثلاثون سنة حتى كان من أعظم علمـاء عصره ، بل أعظم عالم في عصره ، لا تكاد نفسه تشبع من العلم ، ولا تروى من المطالعة ، ولا تَمَلُّ من الاشتغـال ، ولا تكِلُّ من البحث ، وقل أن يدخل في باب من أبواب العلوم إلا وفتح له من ذلك الباب أبواب ، واستدرك أشياء في ذلك العلم على حذّاق أهله .

وكان يحضر المجالس والمحافل في صغره ، فيتكلم ويناظر ويفحم الكبار ، ويأتي بمـا يحار منه أعيان

البلد . وشرع في الجمع والتأليف وله نحو سبع عشر سنة .

قال الحافظ الزملكاني [1] : كان إذا سئل عن فن من الفنون ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن ، وحكم أن أحداً لا يعرف مثله .

وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل

---

(١) هو قاضي القضاة الحافظ كمال الدين محمد بن علي الزملكاني الشافعي ٦٦٧ – ٧٢٧ . ولقب قاضي القضاة مما يكره استعماله قياساً على ملك الملوك كما ذكر ابن القيم في « زاد المعاد » وقد كره رسول الله عليه وآله وسلم أن يقال للسلطان : ملك الملوك . أخرج ذلك البخاري من حديث أبي هريرة فايرادنا لهذا اللقب هنا لا يعني إقرارنا له ولكن رعاية لجانب الأمانة العلمية ومحافظة على ما كان مصطلحاً عليه .

ذلك ، ولا يعرف أنه ناظر أحداً فانقطع معه ، ولا تكلم في علم من العلوم سواء كان من علوم الشرع أو غيرها إلا فاق فيه أهلَه والمنسوبَ إليه. وكانت له اليد الطولى في حسن التصنيف ، وجودة العبارة والترتيب والتقسيم والتبيين .

وقالوا فيه : « وأخذ في تفسير الكتاب العزيز أيام الجمع على كرسي من حِفْظه ، فكان يورد ما يقوله من غير توقف ولا تلعثم ، وكذا كان يورد الدروس بتؤدة وصوت جهوري فصيح .

وانتهت إليه الإمامة في العلم والعمل والزهد والورع والشجاعة والكرم والتواضع والحلم والأناة والجلالة والمهابة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن

المنكر ، مع الصدق والأمانة والعفة والصيانة ، وحسن القصد والإخلاص والابتهال إلى الله تعالى وشدة الخوف منه ، ودوام المراقبة له ، والتمسك بالأمر ، والدعاء إلى الله تعالى ، وحسن الأخلاق ونفع الخلق والإحسان اليهم .

وكان رحمه الله سيفاً مسلولاً على المخالفين ، وشجىً في حلوق أهل الأهواء والمبتدعين ، وإماماً قائماً ببيان الحق ونصرة الدين ، طنت بذكره الأمصار ، وضنت بمثله الاعصار » .

وقال الذهبي [1] : إنه صار من أكابر العلماء

(١) هو مؤرخ الإسلام الإمام محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي الشافعي ٦٧٣ – ٧٤٨ ومن قوله : —

في حيـاة شيوخه ، ولعل تصانيفه في هذا الوقت تكون أربعة آلاف كرّاس وأكثر ، وفسر كتاب الله تعالى مدة سنين من صدره أيام الجُمَع ، وكان يتوقد ذكاءً ، وسماعـاته من الحديث كثيرة ، وشيوخه أكثر من مئتي شيخ ، ومعرفته بالتفسير اليها المنتهى ، وحفظه للحديث ورجـاله وصحيحه وسقيمه مما لا يُلحق فيه ، وأما نقله للفقه ولمذاهب الصحابة والتابعين فضلاً عن مذاهب الأربعة ، فليس له فيه نظير ، وأما معرفته بالملل والنحل والأصول

– الفقـــه قـــال الله قال رسوله
– إن صح – والإجماع فاجهد فيـه
وحذار من نصب الخلاف جهـالة
بـــين النبي وبين رأي فقيـــه

والكلام فلا أعلم له فيه مثيلاً ، وعربيته قوية جداً ، وأما معرفته بالتاريخ والسير فعجب عجيب .

قال : فإن ذكر التفسير ، فهو حامل لوائه ، وإن عدّ الفقهاء ، فهو مجتهدهم المطلق ، وإن حضر الحفّاظ نطق وخرسوا ، وسرد وأبلسُوا ، واستغنى وأفلسوا ، وإن سمي المتكلمون ، فهو فردهم وإليه مرجعهم ، وإن لاح ابن سينا [1] يَقْدُم الفلاسفة فلّهُم وتيّسهم وهتك أستارهم ، وكشف عوارهم .

---

(١) هو الحسين بن عبد الله الرئيس ابن سينا الفيلسوف المشهور الذائع الذكر في الشرق والغرب له أكثر من مئة مؤلف ورسالة في الفلسفة والطب والإلهيات والنفس والرياضة والأخلاق والمنطق . وجاء في « الأعلام » للعلامة الأستاذ الزركلي : « يأخذ عن الملاحدة المنتسبين إلى —

وله يد طولى في معرفـــة العربية والصرف واللغـة وهو أعظم من أن تصفه كلمي أو تبينه إشارة قلمي .

وقال في مكان آخر : وله خبرة تامة بالرجـال وجرحهم وتعديلهم وطبقاتهم ومعرفة بفنون الحديث، وبالعالي والنازل ، وبالصحيح وبالسقيم مع حفظه لمتونه الذي انفرد به ، فلا يبلغ أحد في العصر رتبته ولا يقاربه ، وهو عجيب في استحضـاره واستخراج الحجج منه ، وإليه المنتهى في عزوه إلى

- المسلمين كالإسماعيليـــة ، وكان أهل بيته من أهل دعوتهم ، من اتبـاع الحاكم العبيدي . » ولد ٣٧٠ ومات ٤٢٨ هـ .

الكتب الستة والمسند[1] بحيث يصدق عليه أن يقال : كل حديث لا يعرفـــه ابن تيمية فليس بحديث ،[2] ولكن الاحاطة لله ، غير أنه يغترف فيه من بحر ، وغيره يغترف من السواقي .

وقال أيضاً : كان يقضى منه العجب إذا ذكر

---

(١) الكتب الستة هي : صحيح البخاري ، صحيح مسلم ، سنن أبي داود ، سنن النسائي ، سنن الترمذي ، سنن ابن ماجه . والمسند : هو مسند الإمام أحمد بن محمد ابن حنبل ، وقد جدد المكتب الإسلامي تصوير طبعته الكاملة في ستة مجلدات مع فهرس للصحابة صنعه المحدث الشيخ محمد ناصر الدين الألباني .

(٢) في هذا غلو لايخفى على المتضلعين بعلم الحديث ولا يرضاه ابن تيميـة نفسه لو علم به . نقول هـذا مع اعترافنا بأنه قد أحاط بالقسم الأوفى من الحديث وقـد أحسن باستدراكه بقوله : ولكن الإحاطة لله .

مسألة من مسائل الخلاف واستدل ورجّح ، وكان يحق له الاجتهاد لاجتماع شروطه فيه .

قال : وما رأيت أسرع انتزاعاً للآيات الدالة على المسألة التي يوردها منه ، ولا أشد استحضاراً للمتون وعزوها منه ، كأن السنة نصب عينيه وعلى طرف لسانه ، بعبارة رشيقة وعين مفتوحة ... ومن خالطه وعرفه قد ينسبني إلى التقصير فيه ، ومن نابذه وخالفه قد ينسبني إلى التغالي فيه ، وقد أوذيت من الفريقين من أصحابه وأضداده .

وكان أبيض أسود الرأس واللحية ، قليل الشيب ، شعره إلى شحمة أذنيه ، كأن عينيه لسانان ناطقان ، ربعة من الرجال ، بعيد ما بين المنكبين ، جهوري

الصوت فصيحاً ، سريع القراءة ، تعتريه حدة لكن يقهرها بالحلم .. وقال : تعتريه حدة في البحث وغضب تزرع له عداوة في النفوس .

كتب الذهبي إلى السبكي [1] يعاتبه بسبب كلام

---

(١) هو قاضي القضاة أبو الحسن السبكي وكانت بينه وبين ابنه وتلامذتهم من جهة وشيخ الإسلام ابن تيمية وتلامذه مجادلات وردود ، وهذه الكلمة تذكر للسبكي بالتقدير . رحم الله الجميع .

وأما صاحب الكلمة التي وضعناها على الغلاف فهو بهاء الدين أبو البقاء محمد بن عبد البر بن يحيى بن غانم السبكي المولود بدمشق سنة ٧٠٧ والمتوفى فيها سنة ٧٧٧ .

والمترجم بـ « الرد الوافر » رقم١٦ طبع المكتب الإسلامي وتمام الكلمة « والله يا فلان ما يبغض ابن تيمية إلا جاهل أو صاحب هوى فالجاهل لايدري مايقول ، وصاحب الهوى يصده -

وقـع منه في حق ابن تيمية فأجابه : وأما قول سيدي في الشيخ تقي الدين ، فالمملوك يتحقق كبير قدره،وزخارة بحره،وتوسعه في العلوم النقلية والعقلية، وفرط ذكائه واجتهـاده وبلوغه في كلٍ من ذلك المبلغ الذي يتجاوز الوصف ، والمملوك يقول ذلك دائماً ، وقدره في نفسي أكثر من ذلك وأجل مع ما جمعه الله له من الزهادة والورع والديانة ونصرة الحق والقيام فيه لا لغرض سواه ، وجريه على سنن

ـ هواه عن الحق » وقد أوردها العلامة الشيـخ بهجة البيطار في كتابه القيم « حياة شيخ الإسلام ابن تيمية » الصفحة (٢٢) وأوردها العلامة صديق حسن خان في شرح ألفيـة ابن ناصر الدين الدمشقي في التاريخ ، وأوردها في الصفحة ١٠٣ من « القول الجلي » العلامة صفي الدين البخاري الحنفي .

السلف ، وأخذه من ذلك بالمأخذ الأوفى ، وغرابة مثله في هذا الزمان بل من أزمان .

وقال ابن سيد الناس [1] : إنه برّز في كل فن على أبناء جنسه ، ولم تر عين من رآه مثله ، ولا رأت عينه مثل نفسه .



بدأت محنة شيخ الإسلام لما تمت أدواته وشاعت فتاويه في مسائل وجد منها حساده مدخلاً لهم ، فناقشوه وكفروه وبدعوه ، فنقله الولاة وغربوه ،

---

(١) هو الحافظ فتح الدين محمد ابن سيد الناس اليعمري الأندلسي الشافعي المتوفى ٧٣٤ .

وكان منذ سنة تسع وتسعين وستمائه ظهرت شخصيته السياسية في البلاد ، وبدأ تعويل الأمة عليه في دفع أعدائها عنها في نوبة غازان[1] ، فقام بأعباء الأمر بنفسه ، واجتمع بنائبه وجرأ على المغول[2] وتوجه بعد ذلك بعام إلى الديار المصرية لما اشتد الأمر بالشام من المغول ، واستصرخ بأركان الدولة وحضهم على الجهاد ، ثم عاد بعد أيام إلى دمشق وظهر اهتمامه بجهاد التتار وتحريضه الأمراء على ذلك إلى ورود الخبر بانصرافهم ، وقيامه القيام المحمود

---

(١) غازان : قائد جيش التتار الذي حاصر دمشق .

(٢) المغول والتتار أمتان من الجنس الأصفر اكتسحوا العالم الإسلامي فخربوا المدن ، وأذلوا معالم الحضارة ، ثم هداهم الله — بعد ذلك — للإسلام فكان منهم حماة له .

في وقعة (شقحب)[1] سنة اثنتين وسبعمائة واجتماعه بالخليفة والسلطان ، وأرباب الحل والعقد ، وتحريضهم على الجهاد . ثم توجهه في آخر سنة أربع وسبعمائة لقتال الكسروانيين[2] واستئصال شأفتهم ، ثم مناظراته للمخالفين في سنة خمس في المجالس التي

---

(١) شقحب : عين ماء جنوب دمشق بعد الكسوة على يمين الذاهب إلى حوران ، جرت فيها معركة عظيمة بين التتار والمسلمين أبلى شيخ الإسلام فيها البلاء الحسن ، وكانت في أول رمضان .

(٢) الكسروانيون: هم سكان جبل كسروان من النصارى والروافض والنصيرية وأصحاب العقائد الفاسدة ، وكلهم كان يداً وعيناً للفرنج والتتار . وقد جرت المعركة معهم في مستهل ذي الحجة سنة أربع وسبعمائة .

عقدت له بحضرة نائب السلطنة الأفرم وظهوره عليهم بالحجة والبيان ، ورجوعهم إلى قوله طائعين مكرهين .

ثم توجهه بعد ذلك في السنة المذكـــورة إلى الديار المصرية في صحبة قاضي القضاة الشافعية [1] وعقدهم له مجلساً حين وصوله بحضور القضاة وأكابر الدولة ، ثم حبسه في الجب بقلعة الجبل ومعه أخواه [2] سنة ونصفاً ، ثم إخراجه بعد ذلك وعقدهم له مجلساً ظهر فيه على خصومه ، ثم عقدهم

---

(١) هو القاضي نجم الدين بن قصرى ، كما في « العقود الدرية » صفحة ٢٤٨ .

(٢) هما شرف الدين عبد الله ، وزين الدين عبد الرحمن .

له مجلساً سنة سبع لكلامه في طريقة الاتحادية [1] ثم الأمر بتسفيره إلى الشام على البريد ، ثم الأمر برده من مرحلة وسجنه بحبس القضاة سنة ونصفاً ، ثم إخراجه منه وتوجيهه إلى الاسكندرية ، وجعله في برج حبس فيه ثمانية أشهر ، ثم توجهه إلى مصر واجتماعه بالسلطان [2] في مجلس ضم القضاة وأعيان الأمراء وإكرامه له إكراماً عظيماً ومشاورته له في قتل بعض أعدائه وامتناع الشيخ عن ذلك ، ثم سكناه القاهرة ، ثم توجهه إلى الشام ، ثم ملازمته بدمشق لنشر العلوم وتصنيف

---

(١) أصحاب وحدة الوجود ، وكفر هؤلاء أشد من كفر اليهود والنصارى .

(٢) هو الملك الناصر محمد بن قلاوون المتوفى ٧٤١ .

الكتب وافتاء الخلق . إلى أن تكلم بمسألة الحلف بالطلاق ، فأشار عليه بعض القضاة بترك الافتاء بها في سنة ثماني عشرة وسبعمائة ، فقبل إشارته دفعاً للفتنة ، ثم ورد كتاب السلطان بعد أيام بالمنع من الفتوى بها ، ثم عاد الشيخ إلى الافتاء بها وقال :

لا يسعني كتمان العلم ، وبقي كذلك مدة إلى أن حبسوه بالقلعة خمسة أشهر وثمانية عشر يوماً ، ولم يزل على عادته من الاشتغال والتعليم إلى أن ظفروا له بجواب يتعلق بمسألة شد الرحال إلى قبور الأنبياء والصالحين ، وكان أجاب به من نحو عشرين سنة ، فشنعوا عليه بسبب ذلك ، وورد

مرسوم السلطان في شعبان من سنة ست وعشرين بجعله في القلعة ، فأخليت له قاعة حسنة وأقام فيها ومعه أخوه يخدمه ، فكتب في المسألة التي حبس بسببها مجلدات عديدة وظهر بعض ما كتبه واشتهر ، وآل الأمر إلى أن منع من الكتابة والمطالعة ، وأخرجوا ما عنده من الكتب ، ولم يتركوا له دواة ولا قلماً ولا ورقاً ، وكتب عقيب ذلك بفحم . وكان إخراج الكتب من عنده من أعظم النقم ، وبقي أشهراً على ذلك ، وأقبل على التلاوة والعبادة والتهجد حتى أتاه اليقين .

هذا مجمل ما قيل في حالة شيخ الإسلام ، ومع ما حاول أعداؤه أن ينغصوا عيشه دأب في كل

زمن على التأليف ، فألف ثلاثمائة مجلد [1] وكلها في الشرع ، وفي حل مسائل عويصة من الدين تقرأ فيما وصلنا منها مثالاً من علمه النفيس ، وعمله الذي عقمت القرون أن يأتي رجل بما يماثله .

كثرت تآليفه ، لأنه كان يؤلف من صدره ، حفظ الكتاب والسنة وما دون في شروحها ، وما قاله العلماء في تفسيرهما ، وقد ساعدته كثرة محفوظه وفيض خاطره ، وسعة بيانه على تدوين حقائق لم يكتب لعالم مثله في موضوعه ، ولو لم يكن له

---

(١) ألف الإمام ابن قيم الجوزية رسالة في مؤلفات الشيخ فبلغت الرسالة اثنين وعشرين صفحة ، فيها مايقرب من ثلاثمائة وخمسين كتاباً ورسالة وقاعدة . ثم ظهر أن لشيخ الإسلام كتباً ورسائل لم يرد لها ذكر في رسالة ابن القيم .

إلا « منهاج السنة » لكفاه على الأيام فخراً لا يبلى ، ففيه مثال من علمه وقوة حجته ومعرفته بالملل والنحل ، وإذا قلنا : إنه لم يؤلف نظيره في الرد على المخالفين لأهل السنة لصدقنا كل منصف من أهل القبلة .

وكتاب « منهاج السنة » من أصح الشهادات على علو كعبه في معرفـــة الشرع وما تقلب عليه ، وما حاول بعض أهل الأهواء من العبث به ، وفيما أورده الموافقون والمخالفون من صحيح الآراء وبهرجها ، وكان عنوان مداركه الواسعة بتأريخ الإسلام وتاريخ الملل والنحل ، ولو ادعينا أنه لم يأت عالم مثله يعرف ما طرأ على الدين ومذاهب أهله فيه ساعة ويوماً يوماً ما قدر أحد على رد دعوانا .

رد على المعتزلة وعلى الجهمية وعلى الشيعة وعلى الفلاسفة [1] وعلى غيرهم فجاء بالعجيب من الآراء

---

(١) المعتزلة : فرقة من الفرق الإسلامية وقد سمي اتباعها بالمعتزلة لاعتزال زعيميها واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد حلقة الحسن البصري لما اختلفا معه في حكم مرتكب الكبيرة ، وقالا : إنه في منزلة بين المنزلتين لا مؤمن مطلقاً ولا كافر مطلقاً ، وقيل : إنهم سمو بالمعتزلة لاعتزالهم رأي الأمة في القول المتقدم . وتتلخص تعاليمهم في الأصول التالية :

١ – القول بالمنزلة بين المنزلتين .

٢ – القول بأن الله لايخلق أفعال الناس بل هم الذين يخلقون أفعالهم .

٣ – نفي صفات الله من علم وقدرة وحياة وسمع وبصر ... الخ .

٤ – قولهم بسلطة العقل وقدرته على معرفة الحسن والقبيح ولو لم يرد بهما شرع . –

التي استخرجها من روح الشريعة واستنبطها ببعد نظره وشدة بحثه فما كتب لإمام من الأئمة في عصره وبعد عصره أن يناقضه ويرد أقواله .

وعلى كثرة ما حرص الشافعية للتفوق على هذا الحنبلي [1] ، واقناع العلماء بفتاويهم وتزييف فتاويه،

- وقد تشعبت المعتزلة شعباً مختلفاً وهم الذين قالوا بخلق القرآن وكانوا أصحاب منطق وبيان مع زيغ عقيدتهم .

الجهمية : هم الجبرية ، ودعوا بالجهمية نسبة إلى جهم ابن صفوان وكانوا يقولون : إن الإنسان مجبر لا اختيار له ولا قدرة ، ويقولون بنفي الصفات ، وبأن القرآن مخلوق. وقد مات جهم مقتولاً نحو سنة ١٢٨ هـ .

(١) كان خصوم الشيخ في الواقع كل من ضاق أفقه أو ظهر حسده من مختلف المذاهب ، كما كان أنصاره أيضاً من مختلف المذاهب .

ما كانوا معه إلا كالأطفال أمام الرجال ، وفي مقدمتهم المشايخ بنو السبكي ، وما كان لهم في دولة مصر والشام من السلطان .

اعتقلوه في القاهرة والاسكندرية أشهراً لم تمنعه عن التأليف والتدريس والوعظ ، وما حالوا دون إعجاب المنصفين من العلماء به وقول الحق فيه ولا دون تقديس الأمة له يوم موته ، وهي التي عرفته سبّاقا إلى كل خير يقصد منه صلاح دنياها ودينها ، وكان له في انتصار دولة المماليك على التتار اليد الطولى التي لا تنكر ، ودل أنه في السياسة كما هو في الدين إمام عظيم ، وأن الدين لا ينفصل عن السياسة في نظره ، وما سمع لأحد علماء الدين

في عصره صوت مثل صوته في احقاق الحق ونصرة سلطان الإسلام .

ونسبه قوم إلى أنه يسعى في الإمامة الكبرى فإنه كان يلهج بذكر ابن تومرت [1] ويطريه فكان ذلك مؤكداً لطول سجنه .

ولم يرض يوم عقد الصلح مع التتار أن يتخلى عن الأسرى من النصارى واليهود ، فقال : إنهم ذمتنا ولا بد من إرجاعهم إلى ديارهم .

وكم له من مثل هذه الحسنات التي أصبحت كأنها

---

(١) هو محمد بن تومرت صاحب دعوة دينية في المغرب وتعتبر دولة الموحدين ثمرة لدعوته . وقد أعلن أنه المهدي وأنه أرسل ليقيم حكم الكتاب والسنة ويقمع الفساد والبغي ثار على « ابن تاشفين » ولد ٤٨٥ وكانت وفاته ٥٢٤ .

قواعد من قواعد الشرع والسياسة لا يستغني عنها خليفة ولا سلطان .

إن استعانة خصوم ابن تيمية بقوة رجال الدولة في مسألة شد الرحال إلى قبور الأنبياء والأولياء والصالحين وفي غير ذلك من البدع التي أقروها ، والشريعة تنكرها إنكاراً ظاهراً كما يفهم من آي الكتاب العزيز ، وهدي الصحابة والتابعين والعلماء العاملين ، واغتباطهم بما ظنوه ظفراً لهم في تلك المعركة الشديدة قد كان من نتائجه مسخ الشريعة عند المتأخرين ، وبقيت الأمة على إقرار الخرافات والبدع إلى يوم الناس هذا في بلاد المسلمين كافة ، وكأنهم اخترعوا شريعة أخرى استمالوا بها العوام

ومزجوها بالشريعة الاصلية رغم أنوف الخواص فركبوا عار الأبد ، ولعنوا بما بدلوا وحرفوا ، هو لم يأت ببدع ، وهم سلهوا بكل البدع ، فكان العالم العامل حقاً ، وكانوا عبدة أوهام وضلالات .

أراد شرعاً نقياً من الأدران ، وهم تساوت عندهم النقاوة والنفاية ، لأنهم يقصدون بمناقشاتهم الظهور وكسب قلوب الغوغاء على أي حال .

لو عمت دعوة ابن تيمية ــ ولدعوته ما يماثلها في المذاهب الإسلامية ولكنها عنده كانت حارة وعند غيره فاترة ــ لسلم هذا الدين من تخريف المخرفين على الدهر ، ولما سمعنا أحداً في الديار الإسلامية يدعو لغير الله ، ولا ضريحاً تشد إليه

الرحال بما يخالف الشرع ، ولا يعتقد بالكرامات على ما ينكره دين أتى للتوحيد لا للشرك ، ولسلامة العقول لا للخبال والخيال [1] .

كان ابن تيمية في النصف الثاني من عمره سراجاً وهاجاً أطفأ بعلمه وعمله شهرة أرباب المظاهر من القضاة والعلماء ، وكان الصدر المقدم كلما دخل في موضوع ديني أو سياسي ، وعبثاً حاول بعض الشافعية والمالكية أن يسلموه للعامة عليهم يقتلونه فما استطاعوا أكثر من حجز حريته أشهراً في سجنه ، وكان الملوك يحمونه من تعصب خصومه ويعرفون قدره .

وكان الملك الناصر صاحب مصر يرفع من مقام

---

(١) انظر كتابه « الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » الطبعة الثانية للمكتب الإسلامي .

ابن تيمية كثيراً ، وأراد أن يقتل من أفتوا بخلعه من العلماء ، وحثه على أن يفتيه في قتل بعضهم ، فأنكر أن ينـال أحداً منهم بسوء ، وقال له : إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم ، فقال له : أنهم آذوك وأرادوا قتلك مراراً ، فقال الشيخ : من آذاني فهو في حل ، ومن آذى الله ورسوله ، فالله ينتقم منه ، أنا لا أنتصر لنفسي ، وما زال به حتى حلم عنهم السلطان وصفح .

وكان قاضي المالكية ابن مخلوف يقول : ما رأينا مثل ابن تيمية حرضنا عليه ، فلم نقدر عليه ، وقدر علينا ، فصفح عنا وحاجج عنا . فعل هذا ابن تيمية وخصومه يقولون : يجب التضييق عليه إن لم يقتل

وإلا فقد ثبت كفره ، ونحن نقول : إن هذا هو الفرق العظيم بين أخلاقه وأخلاق مشاكسيه ، هم كانوا ممن يهتمون لدنياهم ومظاهرهم ، وهو كان يهتم للأخرى فقط ، وشتان بين المطلبين .

كان يهتم لنشر الدين والقضاء على البدع بقلبه ولسانه وقلمه ، وهمهم أن يرضى عنهم السلطان فيبقيهم في مناصبهم ويستميلوا العامة فيقبلوا أيديهم .

هو يقول لنائب قلعة دمشق في فتنة غازان : لو لم يبق فيها إلا حجر واحد ، فلا تسلمهم ذلك إن استطعت ، فسلمت القلعة من أذى التتار ، وكان يدور كل ليلة على الأسوار يحرض الناس على الصبر والقتال ، ويتلو عليهم آيات الجهاد والرباط ، وكذلك

كان شأنه في وقعة شقحب ، وكان يعد المسلمين بالنصر هذه المرة ، ويؤكد كلامه في ذلك حتى نصروا على عدوهم .

وفي قتال الجرديين والكسروانيين أبان أيضاً عن سياسة رشيدة ، وأرجع بعض الناشزين من أهلها إلى الإسلام .

من أهم المسائل التي حاول حساد ابن تيمية أن ينالوا بها منه مسألة شد الرحال إلى قبور الصالحين وغيرهم .

قال ابن كثير [1] : إن جواب ابن تيمية في هذه المسألة ليس فيه منع زيارة قبور الأنبياء، والصالحين

(١) هو الإمام الحافظ المفسر المؤرخ عماد الدين إسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي (٧٠١ – ٧٧٤) .

وإنما فيه ذكر قولين في شد الرحل والسفر إلى مجرد زيارة القبور .

وزيارة القبور من غير شد رحل إليها مسألة ، وشد الرحل لمجرد الزيارة مسألة أخرى .

والشيخ لم يمنع الزيارة الخالية عن شد رحل بل يستحبها ،ويندب اليها وكتبه ومناسكه تشهد بذلك، ولم يتعرض إلى هـذه الزيارة في هذا الوجه في الفتيا ، ولا قال : إنها معصية ، ولا حكى الإجماع على المنع منها ، ولا هو جاهل قول الرسول ﷺ :

« زوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة » [1]

---

(١) أخرجه ابن ماجة (١٥٦٩) من حديث أبي هريرة ولمسلم (٩٧٦) (١٠٨) من حديث أبي هريرة أيضاً بلفظ « فزوروا القبور فإنها تذكر الموت » .

ثار عليه مرة جماعة من الحسدة ، وشكوا منه أنه يقيم الحدود ، ويعزر ويحلق الرؤوس أيضاً ، وتكلم هو فيمن يشكو منه ذلك وبين خطأهم .

وراح مرة في ثلة من أصحابه ومعهم حجارون وأمرهم بقطع صخرة كانت بنهر قلوط [1] بدمشق تزار وينذر لها ، فقطعها وأراح المسلمين منها ومن الشرك بها ، فأزاح عن المسلمين شبهة كان شرها عظيماً .

قال ابن كثير : وبهذا وأمثاله حسدوه وأبرزوا

---

(١) المعروف الآن بـ « قليط » وهو نهر تجتمع فيه قاذورات عدد من أحياء المدينة وتسقى منه بساتين الشاغور والميدان .

له العداوة ، وكذلك بكلامه بابن عربي [1] وأتباعه فحسد على ذلك وعودي ، ولم يصلوا إليه بمكروه وإنما أخذوه وحبسوه بالجاه ، قال : ولم يزل الشيخ ملازماً الاشتغال في العلوم ، ونشر العلم ، وتصنيف الكتب ، وافتاء الناس بالكلام والكتابة المطولة والاجتهاد في الأحكام الشرعية .

ففي بعض الأحكام يفتي بما أدى إليه اجتهاده

---

(١) صاحب « الفصوص » « والفتوحات » وغيرهما من الكتب التي تدعو إلى وحدة الوجود وقد بين العلماء أن هذه العقيدة أشد كفراً من اليهودية والنصرانية والمجوسية ، ومن أجل كتبه أفتى عدد كبير من العلماء بكفره . انظر كتاب « تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي » . للإمام البقاعي ، وكانت وفاة ابن عربي سنة ٦٣٨

من موافقة أئمة المذاهب الأربعة ، وفي بعضها يفتي بخلافهم وبخلاف المشهور في مذاهبهم .

وله اختيارات كثيرة في مجلدات عديدة أفتى فيها بما أدى إليه اجتهاده ، واستدل على ذلك من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والسلف .

رجل هذا شأنه يكفره القاضي المالكي ، ويحاول قتله ـ والتعزيز عند المالكية القتل ـ ولا تشتفي نفوس بعض العلماء والسياسيين حتى ينادى بدمشق : من اعتقد عقيدة ابن تيمية حل دمه وماله خصوصاً الحنابلة .

وجمعوا الحنابلة من صالحية دمشق وغيرها وأشهدوا على أنفسهم أنهم على معتقد الإمام الشافعي .

قال الصلاح الصفدي[1] كان كثيراً ما ينشدني :

تموت النفوس بأوصابها   ولم يدرِ عُوّادُها ما بها
وما انصفت مهجةٌ تشتكي   أذاها إلى غير أحبابها

وأنشد على لسان الفقراء (جماعة الطرق) :

والله ما فقرنا اختيار   وإنما فقرنا اضطرار
جماعة كلنا كسالى   وأكلنا ماله عيار
تسمع منا إذا اجتمعنا   حقيقه كلها فشار[2]

---

(١) هو الشاعر المؤرخ صاحب كتاب « الوافي بالوفيات » وقد حقق الجزء الثاني الذي فيه ترجمة شيخ الإسلام الصديق الدكتور إحسان عباس . ولد الصلاح بصفد ٦٩٦ وتلقى العلم بدمشق وتوفي فيها سنة ٧٦٤ رحمه الله .

(٢) الفشار : الكذب والهذيان ، والكلمة دخيلة .